الملحقات[1]

١ – السيد جمال الدين في الآستانة
بقلم السيد الفاضل ميرزا حسين خان دانش الأصفهاني نزيل الآستانة

يرى بعض الفلاسفة أن الحوادث الكبرى ، هي التي تخلق الرجال العظام ، ويرى البعض الآخر عكس ذلك ، فيقولون إن العظماء هم الذين يخلقون كبرى الحادثات ، وعلى كل فقد كان السيد جمال الدين ، أحد أولئك العظماء ، وقد صادفت حياته يقظة الإيرانيين ، وانتباه المصريين وتيقظ الأتراك ، وعلى فرض اقتناعنا بمواتاة الظروف ، فليس في خلال الثلاثين سنة الأخيرة وخاصة في القطر المصري وبلاد إيران ، كانت ذات أثر عميق جدا .

وكانت للسيد جبهة عريضة ، بارزة ، وكان يحمل تحت عمامته رأسا مليئة بالتعقل مزدانة بشعر مجعد ذي حلقات طويلة تتدلى من تحت عمامته حتى أسفل صدغيه ، وكان ذا أنف متزن جميل ، كما كانت ذقنه ضخمة تدل على صلابة صاحبها ومتانة طبعه ، وكان ذا شفتين غليظتين ، ولحية كثة في نهايتها ، خفيفة في العارضين يختلط في شعرها السواد بالبياض ، تدل في غالب هيئتها على أفغانيته أكثر مما تدل على إيرانيته . وكان له صدر واسع بقامة قصيرة مستقيمة ممتلئة ، ونظرات مهيبة يشع منها الاعتداد بالنفس من عينين سوداوين واسعتين في حدقتين كبيرتين ، وفم متسع وصوت جهوري ، وكان له يدان صغيرتان تنتهي بأصابع دقيقة متناسقة ، وكان يبدو أثناء حديثه ، ثائرا مهتاجا ، في شيء من اللطف ، وكانت تتحرك ذؤابتاه أثناء النقاش والجدال كما تتحرك ذؤابة فحل الأسد . يلقي

---

(١) الأرقام ٢ ، ٣ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ من هذه الملحقات أرسلت من قبل السيد صفات الله خان .

كلمته دون محاباة ، أو وجل في صوت قوي كأنه زئير أسد في عرينه يهز القلوب ويرعبها . وكانت لنظرات هذا الرجل وكلماته جاذبية عجيبة تأسر الحاضرين لأول وهلة . وكان حريصا مدة إقامته في الآستانة على نظافة ملابسه التي كانت عبارة عن جبة جوخ أحمر وعمامة بيضاء وسروال أسود ، وكان يفرط في شرب القهوة وتدخين السجائر السوداء المعروفة باسم (بابيروس) . ولم يقرب من فمه المشروبات الكحولية قط ، كما كان ملتزما بشرائط الصحة ، فكان يقل من الطعام ، على المائدة ، وكانت رغبته في الحوامض تفوق ميله إلى الحلوى ، ومع أن مائدة طعامه كانت تصف على منضدة عالية على الطراز الأوروبي فإنه كان يأكل بأصابعه الخمس بينما يتناول أضيافه طعامهم (بالشوكة والسكين) إذ لم يكن يأبه بعادات أهل زمانه وآدابهم في هذا الباب .

ولم تكن للسيد علقة بالنساء والزواج فلم يتزوج طيلة حياته أبدا .

وقد أراد السلطان عبدالحميد الثاني أن يزوجه من إحدى أميرات السراي ، فلم يقبل السيد جمال الدين هذا العرض السلطاني ، وبادر برفضه ، وكان هذا مدة إقامته الأخيرة بالآستانة من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٨٩٧ ميلادية ، التي انتهت بوفاته .

وفي تلك الأيام كان السيد يشير إلى ذلك في أثناء حديثه ، فكان يقول أحيانا يريد السلطان أن أتزوج ، مالي والزواج ! إني ما تزوجت هذه الدنيا العظيمة الجميلة فكيف أتزوج بامرأة !.. .

وكان السيد يبدو شهما سخيا مع أضيافه والوافدين عليه ، ويعامل كلا منهم على قدر منزلته ومرتبته . فيمد الفقراء والمعوزين بالمال ، ويدعو إلى مائدته الأغنياء والنبلاء ، وكان أثناء الطعام يخاطب الحضور قائلا : « تفضلوا ، تفضلوا ، وكلوا ، فهذه مائدة سلطانية ، وتناولها ثواب » . ولكنه كان يقنع بلقيمات من الخضروات أو المخللات ، وكان أغلب حديثه على المائدة ، ينم عن عدم الاكتراث والدعابة .

وكان السيد جمال الدين إبان إقامته في الآستانة يصوم شهر رمضان كله ويحيي لياليه – حتى أوقات السحر – في المحاورات العلمية والمذاكرات الفلسفية

مع المعارف ، والأدباء والفضلاء وساسة الشرق ، في دار الضيافة السلطانية (بمحلة التشويقية بنشانطاشي في الآستانة) وكان يؤدي صلاة الجمعة دون انقطاع بمسجد الحميدية ، وكان يحدث في مثل هذه الليالي أن يخاطب أحيانا شخصا غير معين بقوله « أنت يا أيها الدرويش الفاني مم تخشى ؟ اذهب وشأنك ، ولا تخف من السلطان ولا تخش الشيطان ! » وذلك مع أن مجلسه لم يكن يخلو لحظة ، من عيون السلطان .

ومن جملة الأشخاص الذين كانوا يحضرون – دوما – مجالس السيد بالآستانة ، ميرزا عبدالحسين خان الكرماني المعروف « بآقاخان » ، والشيخ أحمد روحي الكرماني ، والحاج ميرزا حسن خان « خبير الملك » والسيد محمد طاهر التبريزي « صاحب جريدة أختر » والأمير الحر أبو الحسن ميرزا المعروف « بالشيخ الرئيس » ، ومعلم فيضي التبريزي ، وإبراهيم المويلحي المصري ، وسلاوى أفندي العربي ، وحسين رضا باشا « الوزير ورئيس لجنة الأتراك المهاجرين » الذي كان يعلن عن تشيعه في كل مكان ، والشاعر التركي محمد بك الذي لم يزل حيا وهو الآن أحد نواب المجلس الوطني بأنقره . والسيد برهان الدين البلخي ، وزمرة أخرى من السواح والشبان المصريين والإيرانيين وغيرهم ، ممن لا أذكر الآن أسماءهم .

وكان السيد جمال الدين في أطواره وأفكاره من الصلابة والحدة بحيث لم يتقبل طبعه الوقاد غير الخوض في المطالب السياسية الواقعية ، والمجادلات العلمية سواء كان ذلك شفاها أو كتابة ، ولم يعر المسائل الأدبية البحتة اهتماما كبيرا ، وكان يرى في الشاعرية حطا من مقامه وكثيرا ما كان يقول : « كنت أقرض الشعر في شبابي ولكني تركته في الكبر » وأذكر أنه كان يستشهد أحيانا – في أثناء حديثه – دون تكلف ببيت من الشعر العربي أو الفارسي تأييدا لقوله ، ثم يشرح المعنى الفلسفي أو العلمي الذي يتضمنه ذلك البيت بأسلوبه الخاص . ومن جملة ذلك هذه الأبيات التي نظمها عراقي الشاعر وحافظ الشيرازي حيث كان يلهج بها دائما .

نخستين باده كاندرجام كردند
زجشم مست ساقى وام كردند[1]
چوخودكر دناسر خويشتن فاش
عراق راچرا بد نام كردند

خارارچه جان بكاهد كَل عذر آن بخواهد[2]
سهل است تلخى مى در جنب ذوق مستى

وكان يقول أثناء توضيحه لمعنى البيت الأخير « سيان عندى طال العمر أو قصر ، فإن هدفي أن أبلغ الغاية وحينئذ أقول فزت برب الكعبة » .

وكان المرحوم ميرزا آقاخان الكرماني لصفاء طبعه ، وسعة خياله يردد في حق « السيد » هذا البيت مفتتنا به .

عرب ديده وتركه وتاجيك وروم[1]
زهر جنس در نفس باكش علوم

وكان المرحوم آقاخان هذا يترنم مبينا حبه للسيد جمال الدين بأمثال هذا البيت ، وهو منكس طربوشه على حاجبه ، وكان يطوي أزقة الآستانة وشوارعها منجذبا بعشق السيد ، وهو يهرول راقصا مذهولا ، ويقول .

رشته بركَردنم افكنده[2] دوست
ميكشد هرجاكه خاطر خواه أوست

---

(١) هذان البيتان للشاعر عراقي ، ومعناهما : كانت أول صهباء صبت في الكأس ، مستعارة من عين ثملة لساق .
وحيث إنهم هم أنفسهم قد أفشوا سرهم ، فماذا يأترى دنب العراقي ؟! .. .
(٢) هذا البيت لحافظ ومعناه :
« ولو أن وخز الشوك يؤذي النفس ، فإن أريج الورد يعوض أذاه ومرارة الخمر يستسيغها ذوق الثمل . » .
(١) معناه : خالط العرب والترك والتاجيك والروم ففي نفسه الطاهرة من كل جنس علوم .
(٢) ومعناه : لقد وضع الحبيب حبلا في عنقي ، وأخذ يسحبني حيثما شاء كما يهوى .

وكذلك كان المغفور له الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، الذي يعد في مقدمة مجتهدي العرب وكتابهم ، مفتونا بالسيد جمال الدين بحيث كان يقول : « أنا واحد من تلامذته . فإني لو قلت إن ما أتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء لكنت غير مبالغ » .

وكان السيد رغم مشربه الفلسفي وميله القليل إلى المتصوفة مستمسكا بالمذهب الحنفي مع اهتمام شديد بأداء فرائض المذهب ، كما يقول الشيخ محمد عبده نفسه : « هو أشد من رأيت في المحافظة على أصول مذهبه وفروعه » .

ومن المعلوم أن الهدف السياسي للسيد جمال الدين والغرض الذي بذل همته من أجله طيلة حياته ، وعقد النية على حصوله ، وتعرض في سبيل ذلك لشتى البلايا والمحن ، إنما هو تخليص الأمم الإسلامية من الضعف والهزال ، وإرشادهم وهدايتهم إلى طريق التقدم والكمال . وكان يسعى دائما – وبشتى الوسائل – للحط من شأن الإنجليز وتقليص ظلهم عن الشعوب الإسلامية . وكان عداؤه للإنجليز يظهر في كل خطوة من خطوات حياته . إلا أنه ليس من شك في أن أمنيته النفسية في بلوغ الشهرة ، وغروره الذاتي كان لهما أثر كبير في هذه الحركات ، فإن السيد كان تواقا إلى أن يشتبك مع من هو أعظم منه شأنا ، ويكافح من هو أكثر منه قوة وسلطانا .

وقد سبق أن ذكرت عن الشيخ جمال الدين أنه كان يأسر الجميع بإعجاز بيانه ، ويختطف الأرواح بسحر نظراته النافذة ، وكان على حد تعبيره يتكلم العربية ويكتبها أفصح بكثير من لغته القومية « الفارسية » ويتكلم الفارسية بأسلوب يميل قليلا إلى الأسلوب العربي[1] .

ويشهد بقدرته البالغة على الكتابة باللغة العربية ما تنطوي عليه أعداد مجلتي « العروة الوثقى » و « ضياء الخافقين » اللتين كانتا تصدران مدة في باريس ولندن ، بيد أن إنشاء السيد في العربية ، لم يكن يبلغ في صحته وروائه مبلغ إنشاء الشيخ محمد عبده ، كما أنه لم يخل من شيء من العجمة ، ولكن حينما كانت تمتزج ثورة

---

(١) أي أنه كان يتلفظ مخارج الحروف بلهجة عربية .

أفكار السيد بجمال تعبير الشيخ امتزاج الشهد بالسكر ، كانت تتجلى المعجزات فى أساليب الإنشاء العربية .

ويذهب الأفغانيون والمصريون إلى أن السيد ولد في قرية « أسد آباد » من مضافات « كنر » من أعمال كابل ، ولكن الإيرانيين يقولون إن « أسد آباد » هذه هي « أسد آباد » إيران بالذات ، من مضافات « همدان » وأن السيد إيراني العنصر بينما يفخر الإيرانيون بظهور هذا الرجل من أفغانستان ، ولا يعترفون بأنه إيراني الأصل والوطن .

وكل يدعـي وصلا بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا
إذا انحبست دموع في عيون تبين من بكا ممن تباكى

ويرى جماعة من كتاب الغرب ومستشرقيهم أن السيد إيراني الأصل وأنه إذا كان قد اشتهر في العالم بأنه أفغاني ، فإنما كان ذلك لعدم ثقته في حماية إيران لرعاياها في الخارج ، كما أنه لم يكن يعتمد اعتمادا قويا على تلك الدولة في صيانة حقوقه ، ورعاية شئونه .

وأتذكر أنني ذهبت صباح يوم لمنزل السيد جمال الدين في نشانطاشي بقصد الزيارة واستأذنت في الدخول عليه ، وما إن قربت منه حتى وجدته محدقا بنظره إلى الأرض يذرع البهو من أقصاه إلى أقصاه ، يروح ويغدو غاضبا رافعا صوته كالمجانين وهو يقول « لا نجاة إلا في القتل ، لا خلاص إلا في القتل ، لا سلامة إلا في القتل ... » وكان السيد آنذاك غارقا في تهوره ، غير مبال بحياته وكان منكسا رأسه وهو يضرب الأرض بقدمه ولم يلتفت إلى حضوري لديه فاشتد عجبي لهذه الحالة الجنونية التي وجدته عليها إذ رأيته منشغلا بنفسه إلى هذا الحد . فلم أتقدم إليه بشيء ، وعدت من حيث أتيت ، وتركته وشأنه ، وبعد انقضاء خمسة وعشرين يوما أو شهر على ذلك وردت أخبار من طهران باغتيال « ناصر الدين شاه » بمسدس « ميرزا رضا » الكرماني .

ولم يكن السيد جمال الدين يستطيع كبت جماح رغباته ، ولم يكن له شيء من الزهد في الدنيا أو الرضا بالقليل ، أو رياضة النفس ، أو غير ذلك من خصائص الدراويش وأهل التصوف « وقد سمعته مرات يقول : إن في الدنيا نوعين

من الفلسفة ، أحدهما أن ليس في الدنيا شيء قط نملكه ، فيجب أن نقنع منها بخرقة ولقمة . وثانيهما ، أن كل ما في العالم جميل مرغوب ، إنما هو لنا وينبغي أن يكون لنا . والثاني هو المثل الأعلى فيجب أن نتخذه شعارا لنا ، ولا نلتفت إلى الأول الذى لا يساوى قطميرا ، أو شرو نقير ، فمن الواضح جداً ، أن مثل هذه الشخصية ، لا يستطيع صاحبها أن يكون زاهدا أو درويشا أو مرشدا أو مريدا .

ولهذا أقول إن السيد لم يكن شيئا سوى رجل ثوري القصد ، ناري الطبع على بصيرة وعلم ، وكان داعية للهياج ، فلسفي المشرب غليظ القلب شديد البطش ، ولم يكن مؤمنا بإمكان رقي شعب في سلم التطور والتكامل .

وبعد أن قبض عليه قهرا في موضع تحصنه ، بضريح السيد عبدالعظيم[1] بأمر من ناصر الدين شاه ، وموافقة الصدر الأعظم ميرزا علي أصغر خان أتابك ، وتقرر إبعاده من إيران إلى حدود العراق قهرا في شتاء قارس البرد كثير الثلج والمطر ، لم يستطع احتمال هذا الذل ، والهوان اللذين لحقاه فلم يغفر للشاه ووزيره بل سلك طريق أخذ الثأر منهما .

وكان يروي كيف أن جنود الشاه كانوا يسوقونه من منزل إلى منزل وهو راكب على برذون في قلب ذلك الشتاء القارس شديد البرودة ، الذي كان الثلج يصل فيه حتى أعلى الركبتين ، وكانوا بعد أن يطرقوا باب كل رباط ، على الطريق ينادون أهله : « افتحوا الباب فنحن جنود مكلفون بسوق أحد المجرمين » ثم يعقب على هذه القصة قائلا .

« أيها السادة ، لقد كنت أنا ذلك المجرم ، وعجيب من نفسي القاسية أنها لم تمت بهذه الشدة ، ونجت من تلك المهلكة » . وكانت عيناه أثناء كلامه عن ذلك الحادث تحمران وتدوران في محجريهما في حرارة وشدة وتتوهجان كسراج متقد ، ويظل مدة على تلك الحال دون أن يستطيع كظم الغيظ أو الهدوء .

---

(١) الشاه عبدالعظيم اسم قرية قرب طهران ، بها مرقد أحد أولاد أئمة الشيعة .

وكانت الدنيا في نظر السيد جمال الدين ليست إلا لوحة شطرنج. وكان يقول دائما : « الدنيا لعب ، فمن ربحها ربح ، من خسرها خسر » .

وعندما كان الحديث يدور حول الباب والبابية ، كان السيد ينبري لتجريح عقيدتهم علنا ، ومع أنه كان يطالب بتيسير فهم الدين الإسلامي فلم يكن يرى فائدة أو مزية للبابية . فهو يقول : « ما مبلغ ما أبدى البابية من الهمة لتسهيل تكاليف الديانة المحمدية ، وأي خدمة أدوها للمسلمين ، إلا إبدالهم القرآن بالبيان وتغييرهم مكة بعكة . ومثل هذا لا يمكن عدّه في الحقيقة إصلاحا ، إذ لم يكن المسلمون بحاجة إلى دين جديد ، فالدين الإسلامي بمقتضى الزمان والمكان لم يكن بحاجة إلا إلى نوع من التبسيط والتيسير فحسب ، ولم تؤد معتقدات البابية ، إلى هذا الهدف أبدا » .

ثم يستطرد قائلا : « ينبغي أن تتمشى أحكام الإسلام وتتلاءم تعاليمه مع ظروف كل زمن وحاجاته ، خوفا عليه من الزوال . وهذا معنى ما قيل من أن الله يبعث في رأس كل قرن رجلا ليصلح أمر هذه الأمة .

وإن الشاعر السنائي مع أنه كان أقرب إلى مبدأ ظهور الإسلام منا بثمانية قرون ، ولم تكن سنن الإسلام وتعاليمه قد اختلطت بعد بالأوهام والخرافات ، قال يخاطب الرسول الكريم .

دين ترا دربى آرايشند
دربى آرايش وبيرا يشند[1]
بسكه ببستند براوبركـ وساز
كرتو ببينى نشنا سيش باز

وكما ذكرت سابقا ، كان السيد جمال الدين أكثر طلاقة في التحدث والكتابة باللغة العربية منه في غيرها من اللغات . وكان يقرأ الكتب العلمية

---

(١) هذان البيتان للسنائي الغزنوي الشاعر ، الصوفي المعروف الذي توفي في القرن السادس ، ومعناهما : إنهم يعمدون إلى تزيين دينك ، ويقصدون تزويقه وتجميله ، ولكثرة ما أضافوا عليه من زوائد وحواشي ، فإنك إذا رأيته لا تكاد تعرفه .

والأدبية الفرنسية ويفهمها ، ولكنه لم يكن يستطع الكلام دون خطأ بهذه اللغة ، وكانوا يقولون إنه كان ملما إلى حد ما باللغة الإنجليزية أيضا ، وقد تفهم السيد بدقة الفلسفة اليونانية عن طريق الترجمات العربية ، كما لم يكن ذا خبرة بعلوم الغرب وفنونه ، إلا قليلا ، وكان له القدح المعلي في علم الأديان والفقه الإسلامي ، والتفسير والحديث والمعاني والبيان وعلم الكلام ، وفي أصول العلوم الشرقية الإسلامية وفروعها على الإطلاق ، هذا ولم أشاهد إلى الآن مثله متكلما خطيبا بمثل هذه الفصاحة بالعربية أبدا .

وكانت مهارته أقوى ما تكون في إبداع المعاني ، وابتكار المضامين منها باختيار الألفاظ وتطريز أساليب الكلام ، وكانت له اليد الطولى في مواطن الجدل وإقامة الحجج ، ولم يستطع أحد أن يشق عبابه في هذا المضمار ، كما قال الشيخ محمد عبده رحمه الله : « إنه ما خاصم أحدا إلا خصمه ، ولا جادله عالم إلا ألزمه ، وقد اعترف له الأوربيون بذلك بعد ما أقر له الشرقيون » . وقصارى القول : إن حدة ذهن هذا الرجل وجلادة طبعه ، وحرية تفكيره ، وكثرة تجاربه ، وسعة علمه ، هي التي جعلت القريب والبعيد يفتتنون بشخصيته ، فطبقت شهرته الآفاق .

وقد تعرف السيد في سنة ١٨٨٣ م أثناء مقامه في باريس بالفيلسوف المؤرخ الإفرنسي الذائع الصيت « أرنست رنان »[١] ونشر مقالا في جريدة « دبا »[٢] يرد فيه على المحاضرة التي ألقاها الفيلسوف المذكور عن الدين الإسلامي وعلومه بجامعة السوربون ، فتقدم رنان برد مهذب على ذلك المقال نشره في الجريدة نفسها في اليوم التالي المصادف لـ ١٩ إيار[٣] ١٨٨٣ م » .

ويصف رنان في رده المذكور السيد وصفا شيقا ، لم يصدر من قبل عن شخص مثله فيقول فى حق السيد : « قلما استطاع أحد أن يؤثر في نفسي مثل ما أثر هو (السيد جمال الدين) ومحاورتي إياه هي التي دعتنى إلى أن أجعل عنوان موضوع

(١) Ernest Renan

(٢) Débats

(١) أي في ١٩ مايو ١٨٨٣ .

محاضرتي في السربون « صلة الروح العلمية بالإسلام » ، إن الشيخ جمال الدين أفغاني متحرر مما علق بالإسلام من أوهام وخرافات ، وهو من العناصر القوية القلب ، التي تسكن مرتفعات إيران المجاورة لتخوم الهند ، حيث تكمن روحه الآرية تحت نقاب ضعيف من الإسلام .

هذا ، ووجود الشيخ يعتبر أكبر دليل على تلك الحقيقة الكبرى التي كثيرا ما صرحت بها قائلا : إن قيمة الأديان منوطة بقدر ما يكون لمعتنقيها من تقدير . وإن أفكار الشيخ الحرة ، وطبعه النبيل القويم ، أثناء الحوار دفعتني إلى الاعتقاد بأني أرى أمامي أحد معارفي القدامى ، كابن سينا أو ابن رشد مثلا وقد عاد إلى الحياة مرة أخرى ، أو أشاهد أولئك الأحرار الذين كانوا قد مثلوا دور الإنسانية مدة خمسة قرون » .

ويجب أن أقرر رغم كل ذلك أن منزلة أرنست رنان العلمية كانت بدرجة لا تحتمل معها المقارنة بينه وبين منزلة السيد جمال الدين العلمية .

ذلك لأن رنان هو الذي أوجد بكتابه وآثاره انقلابا خطيرا في الدين والتفكير في عالم الغرب ، وهو أحد أعلام الفلاسفة والمؤرخين ، كما كان من أعظم كتاب فرنسا في القرن التاسع عشر .

هذا بينما يعد السيد جمال الدين في نظر التاريخ أحد الثوار المستنيرين ، وخطيب الشرق اللاذع ليس إلا .

أما أنا شخصيا فلم أتمكن من أن أجد أي انسجام بين بعض أقوال السيد وبين أعماله العجيبة ، أو تفسيرا لها ، أو أن أضفي على تلك الشخصية الخطيرة علما أو خلقا عظيما ، ومن ذلك أقواله في شأن المرحوم « ميرزا آقا خان الكرماني » وزميليه الآخرين بعد القبض عليهم وحبسهم في ميناء طرابزون ، ويأسهم من الخلاص من براثن الدولة العثمانية . فكنت أسمعه يتكلم مثلا مع الأصدقاء بملء فمه غيظا وغضبا عن ميرزا آقاخان المسكين في تلك الأيام ، ويقول في يأس :

« لا أدري لماذا قبضوا على هذا الإنسان المسكين ، ولا بأي تهمة سجنوه ،

فإنه لشخص جد عاجز ، وهو أحمق لايحل ولا يربط ، فماذا يمكن أن يصدر عن شخص مثل هذا ؟! ... » في حين أن السيد كما اعترف بذلك الجميع كان قد حرض بنفسه في تلك الأيام « ميرزا آقا خان » و « ميرزا حسن خان خبير الملك » و « الشيخ أحمد روحي » بعلم من السلطان عبدالحميد على فتح أبواب المكاتبات السياسية مع العلماء والمجتهدين بالعتبات[1] بقصد توحيد كلمة المسلمين واتحاد دولهم تحت لواء الخلافة[2] ، وبعد اعتقالهم ونفيهم من الآستانة بسعي من « ميرزا محمود خان علاء الملك » سفير إيران لدى الباب العالي باسم الدولة الإيرانية ، لم يستطع السيد بعد ذلك إعادتهم أو تخليصهم .

وكان السيد لا يزال على قيد الحياة ، حين وصل نبأ قتل أنصاره هؤلاء ، في تبريز بيد جلاد « محمد علي ميرزا » الفظ الغليظ القلب . وإني لآسف جدَّ الأسف لقتل « ميرزا آقاخان » الذي كان واسع العلم مرن الطبع لطيفا ظريفا وقد ضاع هباء ضحية حبه للسيد جمال الدين .

ورغم أن « ميرزا محمود خان علاء الملك » بذل أقصى جهده لدى السراي السلطانية والباب العالي بقصد القبض على السيد وسوقه إلى إيران باعتباره محرضا على قتل السلطان الشهيد « ناصر الدين شاه » إلا أن السلطان عبدالحميد لم يوافق رغم كل هذا السعي الحثيث على تسليم السيد جمال الدين بل أصر على أن يبقى في حمايته ، بيد أنه لم تمض مدة حتى أصيب السيد بمرض السرطان في فمه ، وانتهى الأمر بموته نتيجة لاستئصال ذلك السرطان على يد أحد جراحي الترك . ويقال إنه طلب أثناء مرضه إذنا من السلطان ليرحل إلى أوروبا طلبا للعلاج ، ولكنه لم ينل بغيته . ويقول البعض الآخر إنه تسمم أثناء إجراء العملية الجراحية . وقالوا أيضا ، إنه لم يكن معه في ساعته الأخيرة سوى خادمه صادق نصراني فأسلم روحه بين أحضانه ، وقد أودع الثرى في بشكطاش بمقبرة « يحيى أفندي الدراكاهي » رحمة الله عليه وغفرانه .

---

(١) المقصود بالعتبات قبور أئمة الشيعة فى إيران والعراق حيث يقيم العلماء والمجتهدون .

(٢) Panislamisme

وكان السيد كثيرا ما يقول في أثناء حديثه : لقد ولدت دويا ، وأوجدت حركة في كل مكان ذهبت إليه من الدنيا ، ذلك لأن أعمال السيد كانت كلها تتم عن طريق الخطابة والكلام ، وقليلا ما كانت يده تمتد إلى القلم والقرطاس ، وعندما تأثر بكتابات المرحوم « ميرزا آقاخان » وجد في نفسه رغبة تشجع لكتابة بعض الموضوعات باللغة الفارسية ليؤلف منها رسالة تنشر بين الناس ، وكان يقول : « إني لأعجب من أن الناس قد افتتنوا بقراءة كتاب سعدي وأمثاله إلى هذا الحد ، وأنتم تزعمون كذلك أن سعدي كان متمكنا من الكتابة ، أتظنون أن كلستان وآثار سعدي الأخرى من الأهمية بمكان ؟!... فينبغي لنا أن نكتب أشياء كثيرة حتى يعرف الناس ما هي الكتابة ومامبلغ تأثيرها ؟!.. .

وبين أنصار السيد الثلاثة ، كان « ميرزا آقاخان » وحده يعد كاتبا منشئا محيطا بجميع معارف الشرق وآدابه . أما « ميرزا حسن خان خبير الملك » فلم يكن إلا أديبا حسن الخط حاضر البديهة يسير على الأساليب القديمة ولم يكن « الشيخ أحمد روحي » سوى رجل ثوري خطير متكلم . ولم يكن أحد من هؤلاء الثلاثة مطلعا على علوم الغرب وآدابه ، عارفا بإحدي لغاته معرفة تامة ، ولكنهم كانوا مع ذلك يحرصون على أن يوجدوا ثـورة في إيران ، على غرار الثـورات التي أوجدها « فولتير » و « جان جاك روسو » و « فولنى » بقوة بيانهم ، وقدرة بنانهم – في القرن الثامن عشر الميلادي – في فرنسا والغرب .

وحينما يطلع أحد على جـودة ذكاء السيد وغزارة علمه ، وكثرة تجاربه وطول رحلاته ، ومساعيه لتوحيد الدول الإسلامية ، يتوق نفسا إلى معرفة مصيره كفيلسوف حقيقي كبير ، أو كعالم خبير لم يزرع طوال حياته إلا بذور الخير في مزرعة الحياة ، ويتمنى أن يكون مصيره واضحا نقيا كصفاء السماء في مساء يوم من أيام الصيف الجميلة ، بيد أنه للأسف لم يكن كذلك ، فإن هذه الأعجوبة – الذي كان يعد بحق إحدى التجليات الخارقة لقدرة الله تعالى – أضاء العالم كشعاع برق وسط طوفان ، ثم مضى . ولم يخلف من بعده شيئا ، اللهم إلا أن نقول إنه لولا إقدامه منذ ثلاثين سنة في إيران على مناوأة استبداد « ناصر الدين شاه » وهدم سلطانه الغاشم لكان من المحتمل ألا تستطيع الأمة الإيرانية قطع هذه

المراحل من طريق اليقظة والتجديد في خلال العشرين سنة الأخيرة ، ولما تمكنت إيران من رؤية وجه الحرية في هذه الساعة كذلك .

فقد تعجل السيد أمرا كان من المحتم وقوعه في إيران ، وقصر بذلك مسافة الطريق على الأمة الإيرانية ، أما السياسة الاتحادية للدول الإسلامية التي كان يستهدفها السيد طوال ثلاثين سنة ، فقد أصبحت اليوم أثرا بعد عين ، وليس لأية دولة شرقية أمنية في العمل من جديد بتلك السياسة ، والكل يعلم أن بقاء كل أمة وحياتها منوطان بثبات قواها الحيوية ، ودوامها في طريق الحضارة الغربية ، وفي الأخذ بأسبابها ، مع المحافظة على لغتها وآدابها وعاداتها القومية الحميدة .

ولا أنسى أبدا أن مراسل جريدة « تام »[1] في الآستانة طلب يوما مقابلة السيد بعد مقتل « ناصر الدين شاه » وسأله ما رأيكم في ما ينسبه البعض إليكم من التحريض على قتل « ناصر الدين شاه » ؟ فأجابه السيد في حدة وغضب : « إني لم أتنزل إلى هذا الحد بأن ألوث يدي بالاشتراك في أعمال شعب دني وضيع كهذا ، فتبا لهؤلاء القوم وتبا لمليكهم » ويمكن الحصول على تفاصيل هذه المقابلة في مجموعة الثلاثين سنة الأخيرة من هذه الجريدة (تام) في باريس .

وختاما أرى أنه ، إذا كان القصد ، تحليل سوانح حياة السيد جمال الدين والوقوف على حوادث أيامه ، ففي هذا المختصر ما يكفي .

(بيت شعر فارسي في الأصل ترجمته) .

– لقد قلت موجزا لهذه القصة ، فاقرأ أنت التفصيلات من هذا الموجز .

الآستانة – ٢١ يونيه ١٩٢٦ .

حسين دانش الأصفهاني

* * *

(١) Temps

٢ - خطاب السيد

ننشر هنا صورة الرسالة التي كتبها السيد جمال الدين الأسد آبادي من (باريس) حوالي عام ١٣٠٠ من الهجرة ، ردا على رسالة الحاج السيد هادي الأسد آبادي .

(إلى السيد ابن العمة الحاج السيد هادي) .

« عزيزي السيد هادي

كانت رسالتك - حقا - كالحديقة التي رصعت عيدان أشجارها الملتفة بالأزهار المتنوعة ، وذلك لسمو معانيها ورشاقة ألفاظها . ولكن المسالك بين أشجارها كانت - للأسف الشديد - مملوءة بالقبور الخاوية ، والعظام البالية ، وجثث القتلى ، والدماء الجارية ، مما يسبب النفرة منها ، وكراهة النظر إليها . ورائحتها تمنع حاسة الشم من استنشاق عبير تلك الأنوار والأزهار . والسلام » .

وحسب ما تبين بعد ذلك ، وأكده الحاج السيد هادي نفسه أن هذه الرسالة كانت ردا من السيد جمال الدين ، على الرسالة التي كتبها الحاج السيد هادي إليه ، ينصحه فيها أن ينصرف عن أفكاره العالية ، ويترك هذه العقائد جانبا ، لأنه يخشى أن تؤدي هذه الأعمال إلى أن يضحي بنفسه في هذا السبيل .

هذا بعض ما علق بخاطري مما رواه والدي ميرزا لطف الله خان عن خاله السيد ، وسمعه منه بنفسه فإن رأيتم فيه فائدة فسجلوه .

* * *

٣ - من أقوال السيد وحالاته

سأل ميرزا لطف الله خان السيد : إني أرى كل عالم وخبير من شتى الأقوام يستفيد من علمكم ، فيفيد كل منهم بقدر استعداده . فأرجو ألا تحرموني من هذا العلم الغزير الذي أكرمكم به الله تعالى ، وأن تعلموني شيئا أفيد منه في الدنيا ، والآخرة .

فأجاب السيد قائلا : واظب على تلاوة القرآن الكريم ، واعمل بأحكامه .

فقال ميرزا لطف الله . إني أقرأ القرآن بقدر ما أستطيع ، ولكن ليست لي معرفة كافية بالصرف والنحو ، لأتفهم معاني القرآن جيدا .

فأجاب السيد : إذا عملت بما تفهم منه فسوف تنكشف لك بقية معانيه بإذن الله تعالى .

ثم قال : لا تأس ولا تحزن على فقد عزيز قضى نحبه .

(ونسيت السؤال الثاني ، وجوابه) .

وسأله بعض الأشخاص : كيف كان يعاشر غير المسلمين ، خلال تلك المدة الطويلة ، التي مكثها في بلاد الفرنجة .

فأجاب السيد : كنت أعاشرهم كما كان يعاشرهم جدي رسول الله ﷺ .

* * *

وفي أيام عيد النوروز[1] التي صادفت رحلة السيد الأولى أو الثانية ، إلى طهران أخذ الناس من جميع الطبقات – وضيعهم ، وشريفهم ، خواصهم ، وعوامهم – يتوافدان على منزل الحاج محمد حسن أمين الضرب ، لزيارة السيد ومقابلته ، حيث كان قد نزل في هذا المنزل ، وتصادف أن عددا من اليهود ذهبوا لزيارته ، وكان اليوم ممطرا ، فمنعهم خادم الحاج أمين الضرب .

وما أن علم السيد بأمرهم حتى أمر بعدم منعهم ، وأحضرهم لديه .

وبعد أن دخلوا عليه ، وتبادل معهم المجاملات المعتادة خاطبهم قائلا : أريد أن أعاملكم اليوم بالرسم المتبع في بلدتي (أسد آباد) .

فأخذ مناديلهم ، وملأها بالحلوى ، ثم أعطاها لهم .

وبعد تناول الشاي والحلوى ، قال لهم : أيكم أكثر اطلاعا ، وتبصرا في آيات التوراة ؟ .

فأشاروا إلى أحدهم ، فتكلم معه بشأن وجوب تشرفهم بالإسلام ، عملا بحكم التوراة .

فأجابه أحد اليهود قائلا : لو كان الإسلام هذا الذي أنتم عليه فواحسرتاهُ على أنا لم نتشرف – إلى الآن – بالانتساب إلى الدين الشريف ولو كان الإسلام ذلك الذي عليه الآخرون ، فالأولى بنا أن نظل يهودا .

* * *

(١) النوروز : هو اليوم الأول من الشهر الأول لفصل الربيع ومعناه : اليوم الجديد وللإيرانيين عادة متبعة منذ آلاف السنين ، وهي اعتبار هذا اليوم عيدا عاما ، لجميع طبقات الشعب .

ويحتفل به الملك والصعلوك على السواء ، ولا يزال الإيرانيون – حكومة وشعبا – يحتفلون بهذا العيد إلى يومنا هذا ، ويعدونه « عيد الطبيعة » لأن الطبيعة تجدد حياتها كل عام في الربيع .

كما أنه أشار – في خلال حديثه – إلى والدي ، عند رحلته الأخيرة إلى طهران سنة ١٣٠٧ من الهجرة ، وقال : أم فلان كانت في غاية القسوة ، ذلك لأنه في أيام الطفولة كانوا قد أعدوا لي حجلة[١] .

وكان الدهليز الذي في دار أبي بميدان (أسد آباد) فيه ارتفاع قليل .

وحيث إنني كنت طفلا ، ولا أقدر أن أسير بتلك الآلة ، مع ذلك العلو ، فقد نهرتني أم هذا (ميرزا لطف الله والدي .) نهرة ، لا يزال دويها في أذني .

* * *

لقد سمعت مرارا من والدي ، ومن الحاج السيد هادي الأسد آبادي – من أقارب السيد – أن السيد كان كثيرا ما يترنم بهذه الأبيات التالية ، في الأوقات المناسبة ، وذلك بنغمة مؤثرة جداً :

أذكر من مائة كلمة من كلمات مرشدي كلمة واحدة هي : لا ينهدم العالم مادامت الحانة عامرة[٢] .

أزصد سخن ببرم يكحرف مرا ياداست ويران نشود عالم تاميكده آباداست .

ومن ذا الذي يستطيع أن يجلب القلب، أو يستطيع أن يعطي الروح .

يا دل كه تواند برد جان كه تواند داد.

إن جلب القلوب وإعطاء الأرواح منحة إلهية .

دلبردن وجانادن اين هردو خدا داداست .

أين تباع الخمر التي تؤثر في نفس الصوفي ؟ لأني في ألم من ذلك الزهد الريائي[١] .

مى صوفى أفكن كجا ميفر وشند كه در تايم ازدست زهد ريائى در ميخا نه به .

لقد أغلق باب الحانة ، فبالله لا تقبل

بستند خدارا مبسند كه در حيله

---

(١) قوائم خشبية تصنع للأطفال الصغار ، ليتدربوا على المشي بواسطتها .

(٢) ليس المقصود هنا بالحانة دكان الخمر ، بل المراد معنى صوفي هو الحب الإلهي .

(١) المراد البحث عن الحقيقة هربا من أهل النفاق والرياء .

أن يفتحوا باب الحيلة والتزوير والرياء
أنا أعرف ذلك المعشوق الفاتن وأعرف المعشوق الذي هو ينبوع الدلال لقد سمعت ليلة أمس وقع أقدام وإني لأعرف ذلك الواقع .

وتزوير وريا بكشايند .
من آنشوخ طنازرا من شناسم من آن مايه نازرا من شناسم بكوش من آمد دى آواز بائى من آن صاحب آواز رامى شناسم .

هذه الأشعار أيضا وجدتها بخط أبي في تحريراته ، ولم أعرف ناظمها ، فهل نظمها ميرزا رضا نفسه ، أم أبي ، أم شخص آخر ؟!... .

وعلى كل فإني أسجلها الآن :

أنا محب لآل الرسول وعبد للثمانية والأربعة[1] .
محب آل رسولم غلام هشت وچهارم .

وأنا الفدائي لإيران ، الذي اصطاد الشاه (أي قتله) .
فدائى همه إيران رضاى شاه شكارم .

قتل رضا بحكم القضاء ناصر الدين[2] وكان هذا جزاء عمله وإني لست آثما فكيف يستطيع شخص واحد مهاجمة قلب جيش لو لم تمده جنود الغيب في عمله ، فعلامة الرجولة والشهامة قتل العدو وقد عملت هذا حتى أحقق مراد الصديق .
رضا بحكم قضا كشت ناصر الدين را كيفر عملش بود من كناه ندارم تنى چكونه زند خويش را بقلب سياهى اكرچه لشكر غيبى مدد نبود بكارم نشان مردى وآزادكيست كشتن دشمن من اين معامله كردم كه كام دوست برآرم .

* * *

(١) الثمانية والأربعة : إشارة إلى الأئمة الإثنى عشر ، وهم أئمة الشيعة الإمامية الإثنى عشرية .

(٢) (رضا) الذي ورد ذكره فى الأبيات هو ميرزا رضا الكرماني الذي يقال إنه أقدم على اغتيال الدين شاه القاجاري سنة ١٣١٣ هجرية ، بتحريض من السيد جمال الدين .

رسالة جناب الميرزا السيد حسين خان عدالت

يعد جناب السيد حسين خان عدالت ، أحد الرعيل الأول من الأحرار الإيرانيين وقد أدى خدمات جليلة لمعارف آذربيجان[1] ، وهو اليوم مقيم في طهران .

قدم السيد جمال الدين سنة ١٣٠٤ هجرية إلى بطرسبرغ (لينينجراد) وكان غالبية الإيرانيين يزورونه ، لما له من الشهرة .

وتعرفت به أثناء زيارتي له ، وسرعان ما تحولت تلك المعرفة إلى صداقة قوية .

ولعل السبب المهم الذي جعله يرغب في صداقتي هو أن السيد كان شديد الميل إلى ألا يتدخل الآخرون في سلوكه ، ومقاصده .

وأما أنا فقد كنت أسير حسب رغبته .

وفضلا عن ذلك فإنه لم يكن يعرف اللغة الروسية وكان في حاجة إلى من يترجم له ، فكنت أقضي كل أوقات فراغي في حضرته .

وبلغ انسجامه معي إلى درجة أنه كان يشرح لي كل أفكاره ، وعقائده وأهدافه .

وإن كل ما سأذكره فيما يأتي صورة صادقة لما قاله لي السيد نفسه .

هذا وقد دون البروفسور « براون » جزءا من تاريخ حياته ، والحق أن

---

(١) آذربيجان : إقليم واسع يقع في شمال غربي إيران ، بين القوقاز وتركيا حاضرته مدينة « تبريز » .

أكثره يطابق الواقع ، وغير قابل الشك ، وهذا ماعدا القسم الخاص بسفره إلى إيران وروسيا .

ولذلك فأنا أبادر بشرح القسم المذكور .

يجب أن نعلم أولا أن السيد المذكور لم يكن يملك شيئا من المال .

وكان قيامه بالأعمال المهمة خلال السفر ، لا يشغله عن تهيئة ما يلزمه من النقود .

وكان كل غرضه في بادئ الأمر هو إنقاذ الهند من براثن الإنجليز .

وقد أصدر لهذا الغرض جريدة « العروة الوثقى » في باريس . وبلغت قوة تأثير أفكاره في الهند إلى درجة أن الإنجليز اضطروا لوضع قوانين صارمة ، منعا لانتشار تلك الجريدة .

فكان وجود نسخة منها عند أحد يؤدي إلى تغريمه مائة جنية ، وحبسه سنتين .

وبعد أن تعطلت « العروة الوثقى » اعتزم السيد جمال الدين السفر إلى بطرسبرغ .

ونظرا لإلحاح اعتماد السلطنة ، رغب ناصر الدين شاه في مقابلته . واتفق أن تقابل السيد المذكور مع « ظل السلطان » في إصفهان أثناء توجهه إلى بلاط إيران ، وأقام في إصفهان شهرا ونصف شهر .

ومع أنه لم يذكر لي شيئا مما دار من حديث بينه وبين « ظل السلطان » فإنه يستفاد من مجموع ما حكى لي ، وما تتبعته من بعض المعلومات الخاصة بإقامته في إصفهان ، أن السيد (المرحوم) شرح أهدافه التي كانت تلائم أفكار « ظل السلطان » المذكور .

وقد تلاقت أفكارهما في قسم منها ، بحيث تعهد « ظل السلطان » بنفقات سفره إلى « بطرسبرغ » منذ ذلك التاريخ .

وبعد أن قابل « ناصر الدين شاه » في طهران ، سأله ناصر الدين في أثناء تلك المقابلة : ماذا تطلب مني ؟ .

فقال السيد : أريد أذنين صاغيتين .

فاستغرب الشاه من جرأته .

ثم إن الإنجليز الذين كانوا له بالمرصاد ، قد رعوا بكل وسيلة حتى استطاعوا أن يقلبوا أفكار الشاه في السيد ، فتحدثوا إلى الشاه عن عصيان عرابي باشا ، وخروج المهدي السوداني ، وخلع خديوي مصر ، وتكلموا في ذلك مما أدى إلى حرج موقف السيد في إيران ، بسبب تغير عقيدة الشاه فيه ، وأخيرا اعتزم السفر إلى بطرسبرغ .

(تكلم السيد في موضوع عرابي باشا وموضوعين آخرين ، كلاما مستفيضا لا يتسع المجال لذكره الآن) .

وقد بدأت صداقة السيد مع « كاتكوف » – الذي كان من الصحفيين الروس البارزين ، والصديق الحميم لامبراطور روسيا – إبان إقامته في باريس .

وكانت دعوة « كاتكوف » هذا ، من الأسباب القوية لسفر السيد إلى روسيا .

ولكن المنية عاجلت « كاتكوف » حينما وصل السيد إلى بلاد الروس ، فاضطر إلى العمل وحده في المشروع الذي كان ينوي القيام به هنالك .

هذا وقد أصبح للسيد – في أثناء العامين اللذين قضاهما حبيسا في الهند – أصدقاء كثيرون كانوا السبب في نجاته .

وكانت أساس خطته الأصلية إعداد العدة لتوحيد البلاد الإسلامية وتخليصها من ربقة الاستعمار البريطاني .

وهذا هو السبب فى عداء الإنجليز الدائم له ، حتى إنهم لم يغفلوا لحظة واحدة عن مراقبة أعماله في بطرسبرغ .

فكان السيد في هذه الظروف يعمل على تهيئة الوسائل لإثارة الحرب بين الروس والإنجليز ، حتى تتهيأ الفرصة له للقيام بمهمته .

ولكن الروس كانوا غير راغبين في خوض معركة أخرى ، لأنهم قد انتهوا وشيكا من حربهم مع العثمانيين فكانت حالتهم المالية في اضطراب شديد .

وقد تقابل السيد جمال الدين عدة مرات مع « زنويف مدير وزارة الخارجية الروسية » ، ولكن المدير المذكور لم يبد أية مساعدة للأخذ بآرائه .

وهذا نص عبارة السيد جمال الدين عند مقابلته لزنويف : « كل ما أرميه إلى الهواء ، يقع كالقطة فوق الأرض ، أي على يديه ورجليه »[1] .

ثم إنه أراد أن يقابل القيصر بصورة رسمية ، لأن هذا كان حسب مايرى ، دليلا على التدخل في شئون الهند .

ولكن القيصر لم يوافقه على ذلك ، ورأى أن تكون المقابلة بصورة سرية .

ولذلك لم تتسن له إلا مقابلة الملكة ، لأن مقابلة القيصر السرية كانت بلا جدوى . فيئس جمال الدين من تنفيذ خطته في روسيا .

وفي أثناء هذه الأحوال اختلت شئون الأمير « ظل السلطان » ولم يستطع – نتيجة لذلك – أن يمد السيد بالمال ، فأخذ نشاط السيد في الفتور تدريجيا .

وسافر ناصر الدين في هذه الأثناء إلى روسيا ليذهب منها إلى باريس ، بغية حضور الاحتفالات بقيام الجمهورية بفرنسا .

وكان يقوم بأعمال السفارة الإيرانية في بطرسبرغ في أثناء وصول ناصر الدين شاه إليها « علاء الدين التبريزي » ، وكان أرفع الدولة مستشارا للسفارة ومفخم الدولة سكرتيرا لها .

---

(١) نص عبارته بالفارسية هو .

« هرجه أورا بهوا ميياندازم مثل كربه روى دست وبا بزمين ميا فتد » .

ولم تكن لهؤلاء السادة أية صلة بالسيد المرحوم ، فلم يميلوا إلى مقابلة مع الشاه .

ولم يكن المرحوم ميرزا « علي أصغر خان » الذي كان في أثناء هذه الرحلة ، يحتل منصب الصدر الأعظم – رغم صلته بالسيد في أثناء إقامته بطهران – يميل إلى مقابلته في هذه الرحلة في بطرسبرغ وقد قابله ثلاثة من كبار رجال الحاشية بواسطتي فكنت حاضرا أثناء مقابلتهم إياه .

وجاء المغفور له « اعتماد السلطنة » لمقابلة السيد بواسطتي مستقلا المركبة الملكية ، وقبل يد السيد المرحوم مقدما المعاذير من أجل المقال الذي كان قد نشره في جريدة « الاطلاع » بطهران بعد سفر السيد منها .

ونظرا لاطمئنانه إلى ، وإلى حفظي للأسرار ، خاض في حديث السياسة الإيرانية ، وأبدى يأسه البالغ من ناصر الدين شاه ، وكان محقا فعلا فيما يقول .

ولم يكن إسناد الصدارة العظمى لميرزا علي أصغر خان ، مع وجود اعتماد السلطنة ، وحاجي أمين الدولة ، وحاجي مخبر الدولة ، أمرا في صالح الدولة ، بقدر ما كان في صالحه هو .

ذلك لأن سياسة ميرزا علي أصغر خان ، لم تكن بحيث ترضي الله والناس ، بل كانت سياسة تهدف إلى إرضاء الشاه ناصر الدين عنه .

كما أن الميرزا علي أصغر خان نفسه ، أقر بذلك في اليوم الذي كان يصطحب فيه السيد في العربة ، لزيارة الشاه عبدالعظيم .

وقد أفهمه السيد وخامة الأوضاع ، وعواقب سوء السياسة الروسية والإنجليزية .

فاعترف – وهو يبكي – قائلا : إن السبب الذي قربني إلى الشاه هو أني لم أبد رأيا مخالفا لرغبته ، وأن الشاه إنما يرغب أن يكون مرتاح الخاطر ، مادام حيا . وسواء عنده أقامت لإيران قائمة من بعده ، أم لم تقم وهذا هو السبب الذي جعلنا مقصرين في نظر الناس . وكان اعتماد السلطنة يقول : « إن كل كتاب

أترجمه لتنبيه الشاه ، ثم أقرأه عليه ، يحدث تأثيرا سيئا بدلا من أن يؤدي إلى خير » .

إن سياسة الشاه الشخصية تهدف إلى إفساد الخطط الروسية ما ظل على قيد الحياة ، وإبقاء الأمة في غفلة وجهل ، حتى لا يكون لأحد مجال للاعتراض على أعماله .

وكان يرى أن متاعبه كلها تأتي من وعي الأمة ويقظتها . ولم يسمح بأن يوفد أحد من رجال الدولة أولاده للدراسة في الخارج .

كما أنه مانع في أن يرسل المرحوم حاجي أمين الدولة نجله « أمين الملك » هذا – الذي كان في صحبته إذ ذاك – لتحصيل العلم في جامعات أوروبا .

وقد حدثني « أمين الملك » نفسه ، بهذه القصة ، إبان وجودنا في بطرسبرغ .

وما إن ترك المرحوم اعتماد السلطنة ، مجلس السيد المرحوم حتى تفضل سيادته قائلا : إذا كان في إيران رجل يحق أن يطلق عليه اسم المؤرخ أو العالم ، فهو هذا الشخص ليس إلا .

وفي اليوم التالي قابل السيد المرحومين : مخبر الدولة ، وأمين الدولة في المبنى الحكومي .

وكان كل منهما يحذر الآخر ، فقضيا الوقت يجيبان على أسئلة السيد في ملاطفة وتحفظ .

ولكنه كان يثق في أمين الدولة أكثر مما كان يثق في مخبر الدولة وقد أخبرني – بعد عودته – قائلا : لو أخلص كل من هذين الرجلين للآخر ، لاستطاعا إنقاذ إيران من هذه المحنة .

ومكث الشاه ثلاثة أيام في بطرسبرغ ثم قصد إلى لندن .

وكان السيد المرحوم – في هذه المرة – برما بالشاه ورجاله للغاية فاعتزم أن يضربه ضربة يوقظه بها .

ويحسن بنا أن نرجع قليلا إلى الوراء ، لنبين ما حدث في إيران قبل سفر الشاه ، مما لم يكن للروس علم بوخيم عاقبته إذ أنه قبل أن يسافر الشاه – بعام واحد – اختير (دراموند ولف) أحد الساسة الإنجليز المشهورين ، سفيرا لإنجلترا في إيران ، فأوجست روسيا في نفسها خيفة ، من تعيين (دراموند ولف) في ذلك المنصب الخطير ، واعتقدت أن إنجلترا ترمي من وراء تعيينه أمرا نكرا .

ولقد ظهر بعد وصول هذا المندوب السياسي المشهور أن الحكومة الإيرانية جعلت الملاحة في نهر « قارون » حرة للحكومات المجاورة لإيران .

وكان السيد يراقب أفعال الإنجليز ، كما كانوا يتتبعون خطواته ، إذ كان قد أحاط علما – قبل أي شخص آخر – بهذه الخطة المدبرة ، في جعل الملاحة حرة في نهر « قارون » فكتب مقالا ضافيا لإحدى الصحف الألمانية ، يشرح أضرار هذه العملية ، ويثبت أن فائدة حرية الملاحة في هذا النهر تعود على الإنجليز أنفسهم كما تعود على الروس بالضرر الوبيل .

وقد ترجم هذا المقال من الجريدة الألمانية ، إلى جميع الصحف في البلاد الأخرى .

وسبب هذا الخبر دويا ، وأوجد مجالا للقيل والقال في روسيا ضد الشاه ناصر الدين .

وتحقق لدى إيران ما يعود على الشاه بالضرر لو ظل السيد فى روسيا . فدعوه إلى إيران ، وأغروه بالوعود والأماني .

هذا وقد أشرنا آنفا إلى أن السيد لم يكن لديه نقود تكفي لنفقاته وكان يحصل على بعض المال ، في خلال تحقيق أعماله .

لكنه عندما اعتزم السفر إلى إيران لم يكن أمامه طريق لتحصيل المال فحصل على قليل من المال من أحد الأصدقاء ، وتوجه إلى إيران .

وكنت وقتئذ في « تفليس » فقابلني هنالك وهو في طريقه إلى طهران ولم يبلغني بعد ذلك شيء عنه ، حتى سمعت أنهم طردوه من طهران بتلك القسوة البالغة .

ولم أسمع عنه شيئا إلى أن مات .

* * *

وكان المرحوم السيد جمال الدين ذا قامة قصيرة متناسبة مع رأس كبيرة نسبيا ، ويدين صغيرتين وقدمين غير عريضين ، وكان قمحي اللون ، دموي المزاج ، وكانت حمرة الدم تبدو في وجهه إذا انحنى . وكان له ذراعان نحيلان وساقان رقيقتان للغاية . وكان متين البنيان ، ذا صدر عريض مع بروز قليل في البطن وعينين سوداوين .

وكانت له شخصية جذابة ، تفتن قلوب زائريه ، فلا يمل أحد من الاستماع إلى أحاديثه ، التي كان يتحدث بها في كل شأن .

وقد اتفق أن حضرت في صحبته عدة مرات ، وكان يتكلم معي – أثناءها – أربع ساعات في كل جلسة ، ولم أشعر بأي ملل فيها ، بل كنت أفضل الإصغاء إليه ، والجلوس معه ، على كل مجالس الأنس والتسلية .

ولم يكن للسيد المرحوم مصدر معلوم للرزق ، وكان ينفق كل ما يحصل عليه لساعته ، وكان يقول : ما كنت أعرف عدد النقود وحسابها إلى عهد قريب .

ورغم أنه لاق من الإيرانيين متاعب كثيرة ، فقد كان يأمل فيهم خيرا كثيرا .

وكان يقول : أجل ، إنهم لا يستيقظون سريعا ، ولكنهم متى استيقظوا سارعوا إلى الأمام وتقدموا الجميع .

كما كان يقول : إن إيران مركز الإسلام ، وإن لها حق السيادة طبعا على شرط أن لا يحكمها عنصر تركي[1] وأن يكون حكمها بيد أبنائها .

---

(١) يشير إلى أن حكام إيران – أي الأسرة القاجارية – في ذلك الوقت كانوا من أصل تركي .

لكنه كان على عكس ذلك . يائسا من الأتراك يأسا شديدا . فكان قبل وقوع الحرب بين روسيا والأتراك العثمانيين ، يقول : لازلت أفكر في أن العثمانيين إذا ما ظلوا في هذه الغفلة وهذا الغرور ، فلن يستطيعوا اللحاق بركب الحضارة السائر ، وسوف يكون مصيرهم الانقراض .

واستطرد يقول : ولعل هذه الحرب تكون ضربة قوية لهم توقظهم من سباتهم العميق ، حتى يعرفوا واجبهم فيما بعد .

وكان مع هذا يعتقد من ناحية أخرى أن الدولة العثمانية لو أصابتها هزيمة في حرب ، فلن تستطيع أن تلم شعثها قبل نصف قرن .

وكان يحكي أنه في خلال نشوب المعركة حينما كانت الدولة في أشد الحاجة إلى المال ، اجتمع عدد من الأثرياء في أحد الفنادق ، وأخذوا يبكون أحوال الدولة التعسة ورغم ذلك فإنهم كانوا يطلبون – في أثناء الحديث – المشروبات الروحية . وبعد أن فرغوا من تباكيهم ، تبين أن ثمن المشروبات بلغ أربعين ليرة من الذهب .

فقلت لهؤلاء الغيورين : لو كنتم قد ساعدتم الدولة بهذه الأربعين ليرة بدلا من البكاء والنحيب ، لكان خيرا من هذه الحرقة وتلك الشفقة ، وكان كل واحد من هؤلاء السادة يملك ثروة طائلة .

وكان كل من يسأل عن دين المرحوم الشيخ السيد يجيبه « بأني مسلم » .

وحدث أن سأل أحد علماء السنة – وكان يلقي درسا – المرحوم السيد قائلا : ما عقيدتك ؟ .

فأجاب : إني مسلم . فسأله ثانية : من أي المذاهب أنت ؟ .. فأجاب السيد : « إني لم أعرف في أئمة المذاهب شخصا أعظم مني ، حتى أسلك طريقته » .

وأعاد صاحب الدرس القول مرة أخرى : لقد ادعيت كبيرا فأي المذاهب الأربعة يطابق عملك ؟ فأجاب السيد : إني أوافق بعضهم في أمر ، وأخالفهم في أمور .

وكان يحترم الرسول الكريم احتراما بالغ الوصف ، ويعتقد أن ما لحق بالإسلام من هوان وذلة ، إنما هو ناشئ من وجود الملوك المستبدين وعلماء السوء .

وكان يقول : إن هاتين الطبقتين جعلتا الدين وفق أغراض أفرادها الذين ابتعدوا عن الإسلام بمراحل كثيرة ، فبدلا من أن يوفقوا بين الدين والعقل والمنطق أخذوا يطبقون المنطق على دينهم الذي اصطنعوه لأنفسهم وأغراضهم ، ولذلك تراهم دائما في جدال .

صورة جمال الدين بالزي العربي الذي كان يلبسه عند زيارته لبلاد العرب ، وقد نشرت هذه الصورة في المجلات الروسية .

ويجب أن يعلموا أنهم مالم يلبسوا الدين لباس العلم ، فليس من حقهم أن يحضروا مجالس العلماء والمتحضرين ، وكان المرحوم السيد يريد أن يرسي الوحدة الإسلامية على قواعد القرآن ، لا على ما جاء في الأحاديث والأخبار كما كان يريد القضاء على حكم الملوك المستبدين .

وكان من رأيه أن تكون مناهج الدراسة الدينية حسبما تقتضيه ظروف الزمن وأحواله ، وأن يزيل العلماء ما علق بأذهانهم من الخرافات والترهات

والأوهام وأن ينسوا العداوة والبغضاء الموجودتين بين المسلمين بالنسبة إلى معتنقي الأديان الأخرى ، وأن يكون لكل أمة حق التصرف في الأرض التي تقلها ، والاستقلال بها .

* * *

هذه خلاصة الخواطر التي بقيت في ذهني عن السيد المرحوم وعقائده وآرائه ، التي كان يحدثني بها أثناء العامين اللذين قضيتهما في صحبته .

ولقد حدثني عن حياته منذ طفولته إلى اليوم الذى قابلته فيه .

ولكن الذي سجلته كان مختصا بأحواله في تلك الفترة التي قضاها في بطرسبرغ ، مما لم يطلع عليها غيري وكثيرا ما طلبوا مني كتابة هذه الأحوال ، غير أن الظروف لم تكن مواتية للكتابة ، بيد أني لم أكد أقرأ إعلان سيادتكم حتى أقدمت على كتابتها مع ما ينتابني من ملل وسأم وأرجو أن تقع منكم موقع القبول .

طهران : حسين عدالت التبريزي

٤ – برهان الدين والسيد جمال الدين

أرسل إلينا حضرة الميرزا « حسين خان دانش » الإصفهاني نزيل الآستانة ، بناء على ملتمسنا ، الشرح الآتي :

برهان الدين البلخي هذا يعد من تقاة الدراويش ، ومن نبلاء السادة الجديرين بالتكريم .

وكان السيد برهان الدين ، يتردد على الشيخ جمال الدين – كباقي زواره – بمنزله في دار ضيافة السلطان عبدالحميد بمحلة التشويقية ، في حي (شيشلى) ، وذلك إبان إقامته في الآستانة في عام ١٨٩٠ .

وحيث إن البلخى لم يكن سوى درويش شرقي السيرة ، وشاعر رقيق التعبير ، لم يتتبع العلوم والسياسات الغربية فإن مقالات السيد جمال الدين العلمية ، أو خطبه السياسية ، أو كلماته الحماسية الثورية ، لم يكن لها من التأثير فيه والنفوذ عليه ، أكثر مما يكون للخطب الدينية التي يلقيها مرشد متصوف زاهد عارف معتكف في زاوية ، مد سماطه للغني والفقير .

ولعمري كيف يمكن المقارنة بين هذا وبين الجاذبية التي كانت للسيد جمال الدين في نفس الميرزا « عبدالحسين خان » الكرماني المعروف بآغا خان والشيخ أحمد روحي الكرماني وأخيه في الآستانة وفي قلب مصطفى كامل المصري ، صاحب جريدة (اللواء) العربية ومفكر كالشيخ محمد عبده المصري ، والشيخ علي يوسف المصري صاحب جريدة (المؤيد) العربية القديمة ، وفي قلوب جم غفير من أحرار الشبان المصريين والإيرانيين والهنود وما أفاده من إرشاداته نفر من الشيوخ والدراويش والصوفية .

(بيت شعر فارسي في الأصل ترجمته) :

وأستطيع أن أقول :

إن كلا منهم ظن أنه أصبح صديقا له إلا أنه لم يقف على أسرار قلبه[1] .

(بيت شعر فارسي في الأصل ترجمته) :

شاهد السيد هؤلاء واحدا واحدا ، وذهب ، وأعطى الروح لمن أراد منهم ، وذهب[2] .

والشيخ برهان الدين هذا هو نجل السيد سليمان البلخى ، مؤلف كتاب « ينابيع المودة » .

وهذا الكتاب يبحث في حقيقة مذهب التشيع وأحقيته ، مستدلا بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية وقد طبع في الآستانة .

وإن كنت لم أدرك زمن السيد سليمان ، ولم أعرفه ، إلا أن كتابه يدل على أنه من المحدثين الأفاضل وأنه شيعي قوي العقيدة والإيمان .

ولكن لا يظهر في نجله السيد برهان الدين ما يدل على أستاذيته ، وعلمه بالحديث .

قلنا : إن للسيد برهان الدين قريحة في الشعر صافية .

وهو ينظم الشعر التركي الچغتائي كذلك ، ويجيد خط (النستعليق) الفارسي .

---

(١) هذا معنى بيت الشعر الفارسي :

هركسى أز ظن خود شد ياد أو

وز درون أو نجست أسرار أو

وهذا البيت قد تصرف فيه الكاتب ، وأصله من نظم مولانا جلال الدين الرومي الذي يقول :

هركس أزظن خود شد يار من

وز درون من نجست أسرار من

(٢) وهذا أيضاً معنى بيت آخر هو :

« سيد » اينان رايكايك ديد ورفت

هركه راميخواست جان بخشيد ورفت

وهو للمولوى المذكور ، استشهد به الكاتب بشيء من التصرف .

كما أنه يخمس أو يسدس أحيانا ، غزلا لشعراء مثل حافظ وغيره . ويستطيع الإجادة في ذلك إلى حد ما .

وله شخصية موقرة ، فهو يظهر بمظهر الشرفاء ، فيتعمم بعمامة خضراء ، ويرتدي غالبا الثياب الفضفاضة الصفراء والحمراء والبيضاء ، كأهل خيوه وبخارى .

ولم أر هذا السيد منذ مدة ، ولعله الآن قد بلغ الخامسة والسبعين من عمره أو أكثر .

ومنذ ثلاثين سنة تقريبا ، إبان إقامة الحاج الشيخ الرئيس الأمير أبي الحسن ميرزا ، في الآستانة كانت هناك صداقة وألفة ، ومبادلات شعرية بين الأمير المغفور له ، والسيد برهان الدين هذا .

الآستانة : حسين دانش

* * *

٦ - رسالة حضرة السيد محمد توفيق

يعد السيد محمد توفيق من أدباء العصر الحديث في إيران ، وقد قضى جل حياته في البلاد العثمانية ، وكان ناظرا للمدرسة الإيرانية (دبستان إيرانيان) في الآستانة ، ومديرا لمجلة (خاور) التي كانت تصدر هناك .

وله عدة مقالات في مجلة (إيرانشهر) نذكر منها الرسالة التالية :

كتبتم في العدد الثامن من السنة الثالثة رسالة عن السيد جمال الدين وطلبتم إلى المتصلين به أن يكتبوا إليكم بما يعرفونه عنه ، فأرى لزاما علي أن ألفت أنظاركم إلى كتاب (أشهر مشاهير أدباء الشرق) لمؤلفه « محمد محسن عبدالفتاح » ، وهو الكتاب الذي طبع في مصر .

ويقع هذا الكتاب الجليل في جزءين ، وفي الجزء الثاني منه يورد المؤلف تفصيلات عن حياة السيد المرحوم ، وإثبات أفغانيته .

كما أنه يتعرض لانضمامه إلى الجمعية الماسونية ، واختياره رئيسا لها بعد ذلك ، هذا إلى جانب موضوعات أخرى كثيرة .

وقد شرح حياة الشيخ محمد عبده الملقب بالإمام ، المعدود هو وسعد زغلول (باشا) من تلامذة السيد المغفور له .

كما أورد في الكتاب نفسه أربع مقالات بقلم السيد كانت قد نشرت في مجلة « العروة الوثقى » التي كانت تصدر في باريس والتي صدر منها ثمانية عشر عددا .

كما ترجم للشيخ محمد عبده ، وكتب عنه عدة مقالات فمن المناسب مراجعة هذه التفصيلات عند كتابة رسالة عن حياة السيد .

وإن لي بالسيد المذكور قرابة ورحما ، ويضمنا جميعا النسب الحسيني الشريف .

وبعد أن وصل السيد إلى العراق قادما من طهران حل ضيفا في دار مفتي البصرة (عبد الوهاب أفندي) . وكان أحيانا يأتي للتنزه في دار أبي حيث كانت دارنا تطل على النهر ، وتمتاز بصفاء موقعها ، وبهجة حديقتها المشرفة على الشط ، والمزدانة بأزهار (العباسي) ، فكان السيد يجلس هناك ، ويتناول الشاي .

وأذكر – وقد كنت صغيرا ولكني أفهم كل شئ جيدا – إني كنت أحضر الكعك المعروف (بكلوجه) للسيد ، فكان السيد يقول لي مازحا : هل أتيت بالكليجه ؟ لأن العرب يتلفظون الكلوجه (كليجه) .

هذا وإن من تلامذة المغفور له ، كلا من عبدالله فكري (باشا) وعبدالله نديم المصريين ، وهما من فحول علماء مصر ، وكتابها المشهورين وأذكر أن السيد رغم عدم تعصبه ، وسعة أفقه ، كان يقص على والدي ويقول : في أثناء مقامي في بطرسبرغ (أي بطرو كَراد)[1] اضطرني المسلمون هنالك – لشدة تعصبهم – إلى الصيام مع أني كنت مسافرا . ولما كان النهار طويلا يمتد عشرين ساعة ، فقد خارت قواي ، حتى مرضت ، وعند ذلك تركوني ، بعد أن صرت طريح الفراش .

بمباي : السيد محمد توفيق الهمداني

---

(١) وتسمى اليوم : لينينجراد .

obeikandl.com

تكمـــلة

يقع بيت أسرة السيد جمال الدين في حي (سيدان) في (أسد آباد) إلى جانب ضريح الإمام زاده[1] أحمد ، ولايزال حتى الآن عامرا يسكنه السيد حسين ، من بني أعمام السيد .

وكان للسيد أخ واحد ، يسمى السيد مسيح الله ، الذي توفي عام ١٣٠٠ من الهجرة ، ويقع قبره بجوار ضريح الإمام زاده أحمد .

وكانت للسيد شقيقتان : إحداهما السيدة مريم ، التي توفيت حوالي عام ١٣٣٠ هجرية ، ويقع قبرها بالقرب من ضريح الإمام زاده أحمد ، وقد أنجبت عدة إناث .

والأخرى السيدة طيبة ، والدة أبي الميرزا لطف الله التي توفيت مساء الأربعاء الموافق ١٣ من صفر من سنة ١٣٠٤ من الهجرة ، ونقل جثمانها إلى العتبات[2] .

ولبى ميرزا لطف الله نداء ربه في الثاني عشر من رمضان من سنة ١٣٤٠ من الهجرة ونقل أخي ميرزا نصرالله ، جثمانه ، إلى النجف الأشرف .

أما أقارب السيد الذين لا يزالون على قيد الحياة ، فهم : الحاج السيد

---

(١) تطلق هذه الكلمة على كل من ينتمي إلى أئمة الشيعة . وكان من أبنائهم أو أحفادهم .

(١) العتبات : هن المدن التي دفن فيها أئمة الشيعة .

وهي : النجف – مدفن علي بن أبي طالب ، وكربلاء – مدفن الحسين بن علي ، والكاظمية – مدفن موسى بن جعفر ، ومحمد الجواد ، وسامراء – مدفن علي الهادي وحسن العسكري وكلها في العراق .

هادي روح القدس ، ابن عمة السيد ، وميرزا شريف ابن أخت السيد ، وأولاد المرحوم ميرزا لطف الله وهم :

ميرزا فتح الله الجمالي ، وميرزا نصر الجمالي ، وميرزا صفات الله الجمالي ، وميرزا سعدالله الجمالي ، وميرزا بهاء الله الجمالي ، وميرزا أبوالحسن الجمالي .

ومدوِّن هذه الرسالة وهو صفات الله الجمالي .

والملاحظ أن هؤلاء الإخوة الستة ، اختاروا كلمة (الجمالي) علما لعائلتهم ، للدلالة على انتمائهم إلى السيد جمال الدين .

obeikandl.com

٦ – المجاهد العظيم السيد جمال الدين الأفغاني

مترجمة عن جريدة الوطن الصادرة في الآستانة بتاريخ ٣٠ من أغسطس سنة ١٩٢٤ .

رائد اليقظة الأفغانية الحديثة . وداعية الشرق الشيخ جمال الدين الأفغاني – نبذة من حياته في تركيا – صديقه القديم برهان الدين قليج خان – بعض أشعاره .

* * *

الشيخ جمال الدين من المجاهدين الذين كرسوا حياتهم لخدمة شعوب الشرق المظلومة في ميادين التجديد والديمقراطية .

وقد ولد الشيخ جمال الدين في أفغانستان سنة ١٣٥٤ هجرية ، وينسب إلى جماعة السادة المشهورين بـ « كونر » .

وكان جمال الدين من جملة العلماء والساسة الذين يهدفون إلى التوفيق بين الشريعة الإسلامية والحضارة الغربية ، فكان سياسيا وفيلسوفا في وقت واحد .

وقد قدم الآستانة للمرة الأولى في أواخر عهد السلطان عبدالعزيز حيث كان السيد تحسين أفندي مديرا لدار الفنون .

وكثيرا ما كان جمال الدين يتقابل – في خلال هذه الإقامة بواسطة السيد تحسين أفندي – مع الشيخ سليمان البلخى من مشاهير علماء الشـــرق الذي كان قد قدم من تركستان إلى هنا واختار الإقامة في حي السلطان أيوب حيث تقام هناك المجالس العلمية والسياسية .

وكان قد اختير – إبان إقامته – عضوا في مجلس المعارف الأعلى حينما كان منيف باشا وزيرا للمعارف .

فكان الشيخ المذكور يلقي دائما الخطب والأحاديث الموقظة المنيرة لأذهان إخوانه من الترك والأجانب في مجلس المعارف ، كما كان يفعل ذلك في أماكن أخرى مثل (جامع الفاتح الكبير) في مجلس حضره بعض رجال الدولة والعلماء وكبراء المسلمين . وأنشد هذين البيتين للمولوي ثم ترجمهما .

(بيتان فارسيان في الأصل ترجمتهما) :

علم الحق مندمج في علم الصوفية .

ولكن كيف يصدق الناس هذا الكلام ؟!! .

إذ أن علم الصوفية حادث وعلم الحق قديم .

فكيف يدرك هذا العقل السليم ؟!![1] .

وكان الأستاذ يونس وهبي أفندي – الذي كان من الصدور – ممن حضروا تلك الندوة العلمية ، فنقل ما سمعه سرا إلى شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي في عبارات مغرضة مما حمل شيخ الإسلام على أن يوعز إلى السلطان عبدالعزيز بإصدار الأمر بنفي العلامة الشهير .

(ويحكى أن الأستاذ يونس قد ندم على ما ارتكبه واستغفر لذنبه) .

ولكي يهدم السيد الإدارة الاستبدادية ، ويعمل على راحة شعوب الشرق المظلومة ، أخذ يلقي في الجامع الأزهر دروسا سياسية واجتماعية وأخلاقية وفلسفية مفيدة ، واستمر في إرشاد أبناء الشرق هنالك خمسة عشر عاما . كما أنه درب

---

(١) نص البيتين بالفارسية هو :

علم حق در صوفى كم شنود

اين سخن كى باور مردم شود

علم صوفى حادث وأزحق قديم

اين جسان درفهم آيد أى سليم

زمرة من الشبان الأتراك والمصريين والهنود وغيرهم من الوطنيين الشرقيين وفي مقدمتهم : شيخ المبعوثين علي تقي بك والشيخ محمد عبده وسعد زغلول (باشا) وفتحي زغلول بك وعبدالله النديم (بك) وأدهم (بك) ويعقوب خان ونواب وغيرهم .

وكان تلاميذ الشيخ جمال الدين يسجلون كلماته النارية في مذكراتهم أثناء إلقائها . ويعمل كثير من تلاميذه اليوم على تحرير أوطانهم من نير المستبدين الغربيين .

وكان هذا الشيخ الثائر يتنقل في بلاد الشرق باذلا الجهد لتخليص إخوانه المسلمين من ربقة الظلم والاستبداد .

وقد بذل الجهد المتواصل لتنفيذ نياته المقدسة في إيران والبلاد العثمانية ومصر . وكانت غاية الشيخ تهدف إلى استئصال شأفة الجهل والاستبداد والرشوة والتعصب ، وبث روح الحرية وإقامة حكومة ديمقراطية تستطيع أن تسير في التطور والمدنية الحديثة .

ونتيجة لما لاقاه في البلاد الشرقية من عنت واضطهاد اختار الإقامة بمدينة باريس التي كانت تعد مهد الحرية في ذلك الوقت ، وأصدر ثمة جريدة سياسية وفلسفية هي « العروة الوثقى » .

وقام هناك ببعض المساجلات القلمية ، مع مفكري أوروبا وساستها وكان ينشر أفكاره عن طريق محاضراته العلمية التي كان يلقيها في مجالس باريس وموسكو ويعرف الأوروبيين بأمم الشرق وفلسفاتهم .

وكان سعد زغلول (باشا) رئيس وزراء مصر الحالي[1] – الذي يجتهد في رد ادعاءات الإنجليز ضد مصر والسودان – أحد محرري العروة الوثقى .

وقد خلع العمامة في باريس واجتهد في التوفيق بين العلوم الشرقية والغربية بإيعاز من أستاذه جمال الدين .

---

(١) كان سعد زغلول رئيسا لحكومة مصر في وقت كتابة المقال .

وبما أن العلامة جمال الدين كان ميالا في أول أمره إلى الأتراك فقد عاد إلى الآستانة للمرة الثانية في سنة ١٣١٠ هـ ، وأيام السلطان عبدالحميد الذي كان قد نشر على الأمة لواء الظلم والاستبداد ، وكان السلطان المذكور قد دعاه إلى الآستانة قبل ذلك ، فجاء توا إلى الآستانة ونزل في الدار التي خصصت له في حي (نشانطاشي) .

وما إن شعر بما يعانيه إخوانه الأتراك من استبداد عبدالحميد وعسفه حتى أخذ يعمل على القضاء على هذا الاستبداد .

وكان ممن يترددون عليه في تلك الدار حينئذ : برهان الدين خان من علماء بلخ ، ويوسف ضيا باشا رئيس لجنة المهاجرين ، والسيد فضل باشا ، والشيخ الرئيس الثائر الإيراني ، من أعضاء مجلس المبعوثين ، والمرحوم ميرزا آقاخان الذي استشهد من أجل جهاده في سبيل الحرية والمساواة ، وحسن خان القنصل ، والشيخ محمود ، ومحمد صديق خان ، وفيضي أفندي .

ونتيجة لتقارير متملقي البلاط وجواسيسه ، فقد وقعت تلك الدار تحت مراقبة الجواسيس السريين ، بأمر من السلطان عبدالحميد ، واستمرت مراقبتها مدة .

وفي شهر رمضان سنة ١٣١٥ هجرية توفي الشيخ المذكور ، بسبب التسمم نتيجة لعملية جراحية أجريت في ذقنه بعد أن أصيب بمرض السرطان ، إلا أنه لا توجد لدينا دلائل قطعية على أنهم تعمدوا تسميمه .

ودفن المغفور له في مقبرة الشيخ المعروف (شيخلر) بمحلة (بك اوغلى) وقد أزال عبدالحميد المستبد معالم قبر هذا المحرر الشرقي الشهير ، إلا أن مكانه معروف لمريديه ، وقد تركزت منزلته في قلوب جميع المسلمين .

ولبرهان الدين البلخى الذي كان من مؤيدي الشيخ جمال الدين – والذي يعيش الآن في تركيا – آثار في الأدب الحديث والقديم ، وأشعار باللغة العربية والجغتائية والفارسية .

ونورد من أشعاره الفارسية هذه الأبيات :

(أبيات فارسية في الأصل ترجمتها) .

أذكر حديث صديقي وأورده مرة بعد أخرى[1] .

وأنا مطلق من قيد الدنيا والدين أسير كالدراويش .

أنا حر من قيد الخرقة والسجادة والمسبحة .

وثمل من الخمرة أسير كالخمار .

أرتشف الكأس على رغم الفقير والزاهد المرائي .

لأني أسير بنشوة الكأس الدهاق .

* * *

(١) حديث يارخودرا ميكنم تكرار ميكردم

زدنيا وزدين فارغ قلندروار ميكردم

زبند خرقه وسجاده وتسبيح آزادم

زباده مست ومخمورم كه چون خمار ميكردم

كشم جامى على رغم فقير وزاهد وچاپلوس

كه من بانشئه بيمانه سرشار مي كردم

obeikandl.com

٧ – عن جناب الميرزا صادق البروجردي[١]

نبذة عن تاريخ المرحوم المبرور ، الفيلسوف الإيراني ، عظيم الشأن السيد ذي المقام الرفيع ، الأسد آبادي ، المعروف بجمال الدين الأفغاني ، طاب رمسه الشريف .

وهي بقلم السيد الميرزا صادق البروجردي .

السيد الميرزا صادق البروجودي ، الذي لخص حياة السيد في الأبيات التالية ، هو أحد علماء العصر الحديث وأحرارهم ، فقد ضحى بماله وراحته في سبيل نشر الحرية وإقرارها ، ولايزال حتى الآن يعمل على أداء واجباته ، بكل إخلاص وقد قارب السبعين من العمر .

وأمضى ثلاث سنوات كاملة في خدمة السيد ، في إيران وخارجها .

وأنتهز هذه المناسبة فأقول إنه قد تكونت بينه وبين والذي صداقة قوية ، وقد أنشأ هذه القصيدة ، وأرسلها إلي من طهران منذ مدة .

(صفات الله)

١ – ما أن ظهر جمال الدين سيد أسد آباد
حتى بادر بأقواله مرشدا أهل البلاد

٢ – فتح طريق العدل وأغلق طريق الاستبداد
فانسد طريق الظلم ، وصير الناس أحرار .

٣ – هو السيد جمال الدين شمس العلم واليقين
رائد أهل الكمال ، بدر كل العالمين .

---

(١) انتقل السيد صادق البروجردى إلى رحمة الله .

٤ – قدوة الدين المبين نسل مولانا النبي
كان كالرسول الأمين ، هاديا كل العباد .

٥ – وكان في هذا البلد الفيلسوف العالم
الذي لا نظير له في البحر أو البر .

٦ – وكان افتخار هذه الأم (إيران) بوجود هذا الابن
لا حد له ، ولا حصر بالأعداد .

٧ – تحت ضغط الظلم والجور ، صارت المملكة خرابا
ولم يكن باقيا من إيران في ذلك العصر سوى اسمها .

٨ – وحيث إنه لم يكن في ذلك العهد أمن فقد أقدم على
إقرار النظام ، وسعى لإيجاد الشورى رحمة بالناس .

٩ – وقد ظهر السيد الجليل القدر فجأة في عهد ناصر
الدين شاه بوجه مشرق كالبدر .

١٠ – وشع الضوء من هذا القمر ، واستقر في الصدور
وعلم الأبيض والأسود قول الحق وطريق النور .

١١ – وأمر حضرته أن يقتلوا جذور الزور
وقضت همته على تدمير أحراش الجور .

١٢ – وجعل لواء عدله فأس الظلم كليلة
وردت شجاعته للعباد حقوقا جليلة

١٣ – قرب الغريب فصار مألوفا
وشاد للعدل مقاما معروفا .

١٤ – صير بعدله المجانين عقلاء
ونسج بعدله للأستاذ قباء .

١٥ – اشتهر بالأفغاني ذلك المجاهد المبرور
رغم إيرانية ذلك الوزير المشهور .

١٦ – صار شهيدا للجور والزور ، في البلاد العثمانية
فصار قبره مليئا بالنور ، وروحه السعيدة راضية مرضية .

١٧ – كان (صادق) الحقير ، من عبيد عتبته العالية
فصار خبيرا في المعرفة ، والحقائق السامية .

١٨ – يطوف ملك كخسرو پرويز ، حول ساحاته الغرر
ليجعل البلاد عامرة ، من طبعه الناثر للدرر .

* * *

obeikandl.com

٨ – من جناب الحاج (سيد هادي) ابن عمة السيد

الأبيات التالية للسيد الحاج (سيد هادي) الملقب بروح القدس ، وهو ابن عمة السيد العظيم .

وكان من أتراب السيد ، وقد درس معه على أبيه في « أسد آباد » وهو الآن على قيد الحياة ، ويناهز المائة من عمره[١] .

وقد مكث في أثناء عودة السيد الأخيرة من أوروبا إلى طهران ، يومين في « أسد آباد » ونظم هذه الأبيات إبان وجوده فيها .

١ – لقد وفدت أيها الطائر العرشي ، ويا برعم نخلة (طور) المرام .

٢ – لقد وفدت يا حبيب الروح ويا نجي الفؤاد ، لقد وفدت أيها الملك المنقطع النظير .

٣ – لقد وفدت ياسماء العز والتمكين ، وياجمال الحق والدين المبين .

٤ – ما أسعد ملكا في عصرك ، وما أجمل قمرا في قصرك .

٥ – ما أزهى تلك البقعة التي تكون مقامك ، وما أبهى الرأس التي تكون تحت قدمك .

٦ – في مديحك أيها الملك العذب اللسان ، المنقطع النظير ويافخر الزمان .

٧ – لو حركت جواد المثنوي في مدحك ، لا نخلعت أخفاف نجائب المولوي .

٨ – ولكن عهدي في الكلام قد انقضي ، وسوق متاعي ليس فيها سوى الصمت .

---

(١) كان ذلك أثناء نشر الكتاب .

٩ – لقد بادر روح القدس بالخطاب ، فقلت ما قلت والله أعلم بالصواب .

١٠ – تتكلم أنت عن لساني ، وقد امتلأت من حبك عروق جناني .

١١ – من اتحاد نغمات مزماري ، حسدتني السماء على فخاري .

١٢ – لقد عاداك الفلك وعاداني ، وقطع حبل المقلاع بلاتوان .

١٣ – ولقد أصاب حجر الحسد الهدف بصورة سببت طردك من دارك وأهلك .

١٤ – والآن يرمي عديم المروءة ، حجر التفرقة دائما وبغير عدد .

١٥ – ولو لم أكن بقالب الجسم ، لمكنت السماء من مستقرها .

١٦ – والآمن قولي في طي المثنوي . فانظر ماذا يقول جناب المولوي .

١٧ – أنا ما بين الكلام والبكاء في حيرة ، فلا أدري أأقول أم أبكي ياترى .

١٨ – فلو قلت ما استطعت البكاء ، ولو بكيت فما الطريق إلى المدح والثناء .

١٩ – فأنت يامقصود القلب وحبيب الروح ، أيها المليك اللطيف الحديث ، العذب اللسان .

٢٠ – ما دام لي أنين في الحنجرة ، فلتتكلم بعبارة لتسكين قلبي .

٢١ – فيا لسان الحق ياجمال الدين لماذا ، صرت غريبا عن القريب لهذا الحد ؟! .

٢٢ – لماذا أغلقت باب الحديث ، معي أنا المهجور الممتلئ بما يعيد علي أنسي .

٢٣ – إما أن تجلس حتى أبثك ذات نفسي ، أو تحدثني بما يعيد على أنسي .

٢٤ – ألا إن لسانك حسام حق ، فقل ، إذ ليس في قولك ما يضير .

٢٥ – لسان الحق لا يبقى في الحلق ، كما أن حسام الحق لا يبقى في الغمد .

٢٦ – فكل ما تقوله يكون لطيفا قويا ، فإن القول عن لسان الحق عذب .

٢٧ – هو عذب ولكن في الأذن المصغية للحق ، فإن أذن الحق فضلت على بقية الآذان .

٢٨ – إذا دعوت أنت علي فأنا أدعو لك ، ولو سببتني فأنا أثني عليك .

٢٩ – بل إن دعاءك علي هو عين الدعاء لي ، وسبك لي مدح وثناء .

٣٠ – أيها الجادي لقد ثمل الجمل ، فبادر وسارع فقد فقدنا الأمل .

* * *

حاج سيد هادي روح القدس ابن عمة جمال الدين وكان على قيد الحياة في أثناء طبع الكتاب ، وكان مقيماً في أسد آباد مسقط رأس جمال الدين .

إذا أراد الله بقوم خيرا جمع كلمتهم[1]

(جاء في المقدمة أن السيد كان همه الأكبر أن يبدأ الإصلاح في إيران ويجعلها مصدر الوحدة الإسلامية قبل أي بلد آخر .

وإن المقال التالي الذي كتبه في باريس ونشره في العروة الوثقى ، والذي يدعو فيه الأفغانيين إلى الاتحاد مع الإيرانيين لدليل واضح على ما أشرنا إليه في المقدمة) .

سرنا من الجرائد الفارسية خدمة أوطانها واعتدالها في مشاربها ، وزادنا مسرة اهتمامها بترجمة بعض الفصول المهمة من جريدتنا ونقلها إلى اللسان العذب « الفارسي » مما نظن فيه تنبيها لأفكار المسلمين واستلفاتا لعقولهم إلى ما فيه خيرهم ، فلها منا ومن كل مخلص في محبة ملته أوفر الشكر ، خصوصا جريدة (إطلاع) التي تطبع في مدينة طهران .

وهذا المنهج القويم مما تعم به الفائدة في جميع الأقطار الإسلامية فإن جميعها بغير بلاد العرب ، وإن اختلفت ألسنة سكانها باختلاف شعوبهم إلا أنهم ينطقون باللغة الفارسية ، فهي من الشرق كاللسان الفرنساوي في الغرب ، وكان بودنا أن يعززوا أفكارنا بما تجود به قرائحهم السليمة وأذهانهم الصافية وترشدهم إليه عقولهم العالية ، خصوصا فيما يتعلق بالدعاء للوحدة الإسلامية وإحياء الرابطة الملية بين المسلمين ، لاسيما في الاتفاق بين الإيرانيين والأفغانيين لأن هاتين

---

(١) (العروة الوثقى) لا انفصام لها ، العدد الصادر في يوم الخميس ٢٢ شوال سنة ١٣٠١ - ١٤ أغسطس سنة ١٨٨٤ ص ١٠٤ من القسم الثاني طبع بيروت مطبعة التوفيق سنة ١٣٢٨ بالمكتبة الفاروقية تحت رقم (دوريات ٧٩٦) .

الطائفتين هما فرعان لشجرة واحدة وشعبتان ترجعان لأصل واحد هو الأصل الفارسي القديم وقد زادها ارتباطا اجتماعهما في الديانة الحقة الإسلامية ، ولا يوجد بينهما إلا نوع من الاختلاف الجزئي لا يدعو إلى شق العصا وتمزيق نسيج الإتحاد ، وليس بسائغ عند العقول السليمة أن يكون مثل هذا التغاير الخفيف سببا في تخالف عنيف .

وليس ببعيد على همم الإيرانيين وعلو أفكارهم أن يكونوا أول القائمين بتجديد الوحدة الإسلامية ، وتقوية الصلات الدينية ، كما قاموا في بداية الإسلام بنشر علومه وحفظ أحكامه وكشف أسراره ، وما قصروا في خدمة الشرع الشريف بأية وسيلة . نعم البخاري ومسلم والنيسابوري والنسائي والترمذي وابن ماجه وأبو داود والبغوي وأبوجعفر البلخي والكليني وغيرهم ممن أنبتتهم إيران ، أبوبكر الرازي الطبيب الشهير والإمام فخر الدين الرازي ممن نشأوا في طهران وأبوحامد الغزالي حجة الإسلام وأبوإسحاق الإسفراييني والبيضاوي ، وخواجه نصير الدين الطوسي والأبهري وعضو الملة والدين وغيرهم من علماء الكلام والأصول ممن تفخر بهم بلاد فارس وهم فخار للمسلمين والفيلسوف الشهير أبوعلي سينا وشهاب الدين المقتول ومن على شاكلتهم ممن جبلوا من تراب فارس .

إن أهل فارس كانوا من أول القائمين بخدمة اللسان العربي وضبط أصوله وتأسيس فنونه ، منهم سيبويه وأبوعلي الفارسي والرضي ، ومنهم عبدالقاهر الجرجاني مؤسس علوم البلاغة لبيان إعجاز القرآن وفهم دقائقه على قدر الطاقة البشرية وصاحب صحاح الجوهري من إحدى قراهم ومحب الدين الفيروز آبادي من إحدى بلدانهم والزمخشري والسكاكي وأبوالفرج الأصبهاني وبديع الزمان الهمذاني وغيرهم ممن بينوا دقائق القرآن وشيدوا معالم الدين كلهم من أرض فارس والطبري أول المؤرخين والأصطخري والقزويني أول الجغرافيين كانوا من بلاد فارس والشبلي كان من نهاوند وأبويزيد البسطامي كان من بسطام والأستاذ الهروي وهو الأستاذ الحقيقي للشيخ محيي الدين ابن عربي كان من هراة وكلها بلاد إيران ، هل ينسى صدر الشريعة وفخر الدين اليزدي والآمدي والمرغيناني

والسرخسي والسعد التفتازني والسيد الشريف والأبيوردي وكلهم من أبناء فارس ، من أين كان القطب الشيرازي والصدر الشيرازي ورأس الحكمة في المتأخرين مير باقر الداماد ومير فندركسي وغيرهم ؟ كانوا من بلاد فارس ! أي فضل كان ولم يكن لهم فيه اليد الطولى ، أي مزية من الله من بها على الإسلام ولم يكونوا من السابقين لاقتنائها . نعم وفيهم جاء قول من النبي ﷺ : « لو كان العلم في الثريا لناله رجال من فارس » .

فيا أيها الفارسيون تذكروا أياديكم فى العلم وانظروا إلى آثاركم في الإسلام وكونوا للوحدة الدينية دعامة كما كنتم للنشأة الإسلامية وقاية . أنتم بما سبق لكم أحق الناس بالسعي في استرجاع ما كان لكم من فتوة الإسلام أنتم أجدر المسلمين بوضع أساس للوحدة الإسلامية وما ذلك ببعيد على طيب عناصركم وقوة عزائمكم ، أظن لا يخفى عليكم أن هذا الوقت هو أحسن الأوقات لندائكم بالوحدة مع الأفغانيين والتحالف معهم على العادين لتكونوا بالاتحاد معهم حصنا حصينا وحرزا منيعا تقف دونه أقدام الطامعين . أظنكم لم تنسوا أن استيلاء الإنجليز على الممالك الهندية إنما تم بوقوع الخلاف بينكم وبين الأفغانيين ؟ هل يخفى عليكم أن كل مسلم في الهند شاخص بصره إلى طرف بنجاب ينتظر قدومكم إذا اتحدتم مع إخوانكم الأفغانيين . حصلت لكم تجارب كثيرة وشهدتم من مظاهر الحوادث ما فيه أكمل عبرة فهل يصح بعد هذا أن تستمروا على التجافي والتباعد مع علمكم أن الوحدة منبت الشوكة ؟ هذا أوان التآخي والتوافق ، هذه أوقات التحالف والتواثق . أحاط الأعداء ببلادكم شرقا وغربا وكل يشحذ سيفه ويسدد سهمه ، حتى تمكنه الفرصة من شن الغارة على أطراف بلادكم . فلو ضاعت الفرصة في هذا الوقت فربما لا تصادفوها في غيره . الإنكليز في ارتباك شديد في المسألة المصرية مع ضعفهم في القوة العسكرية ومتورطون باختلاف الدول عليهم ومعاكستها لمقاصدهم . الأمير عبدالرحمن خان أمير أفغانستان على ما نعهده من أول شبوبيته أشد الناس عداوة للإنكليز وبينهم حزازات لاتزول بل نقول إن عداوة الإنجليز سارية في عروق الأفغانيين عموما ممتزجة بدمائهم . فلو حصل الاتفاق الآن بين سلطنة الشاه وبين إمارة الأفغان لوجدت قوة إسلامية جديدة في المشرق بين سائر الطوائف الإسلامية وينبعث فيهم

ومن سائر المسلمين حياة جديدة وتتجدد لهم آمال جليلة وتنتعش بذلك أرواح المؤمنين . هذا وقت تنبهت فيه أفكار الأفغانيين إلى أعمال جيرانهم في المسألة المصرية وتحركت فيهم السواكن وهي أعظم فرصة لأهل فارس في دعوتهم للاتحاد معهم . هذا عمل من أجل الأعمال وأجزلها فائدة وإن من أكبر الفضل أن يقوم أهل الفضل من أهالي إيران بتحرير الفصول ونشر الرسائل في بيان فوائد الاتفاق بين الطائفتين وإن لذلك لأثرا عظيما في النفوس خصوصا إن كانت من أقلام العلماء الأعلام والمجتهدين الكرام ، العالم الآن عالم الفكر الصالح ونشره في الكتب والرسائل والجرائد مما يؤثر أجمل الأثر في تهذيب الناس وتثقيف عقولهم وإزالة الضغائن المفسدة لمعاشهم ومعادهم فإذا قام المستبصرون وخطبوا ووعظوا وكتبوا ونشروا مع الوقوف عند الحدود الدينية والأصول الشرعية كان فضل الله كافلا لهم النجاح ، أي فرق بين الأفغانيين وإخوانهم الإيرانيين ؟ كل يؤمن بالله وبما جاء به محمد ﷺ . عبدالرحمن خان بما أكسبته التجارب أول من يتقدم لهذا الاتفاق ولا شك أن شاه إيران لما اطلع عليه في سياحاته وشاهده في أسفاره لا يأبى المبادرة إليه والسعي فيه . إن البادئ بالعمل في هذا المقصد الأسمى هو صاحب الفضل الأعظم بين المسلمين خصوصا وبين العالم عموما ، ويجني ثمرته من وقت قريب . كان الألمانيون يختلفون في الدين المسيحي على نحو ما يختلف الإيرانيون مع الأفغانيين من مذاهب الديانة الإسلامية ، فلما كان لهذا الاختلاف الفرعي أثره في الوحدة السياسية ظهر الضعف في الأمة الألمانية وكثرت عليها دعايات جيرانها ولم يكن لها كلمة في سياسة أوروبا وعندما رجعوا إلى أنفسهم وأخذوا بالأصول الجوهرية وراعوا الواحدة الوطنية في المصالح العامة أرجع الله إليهم من القوة والشوكة ما صاروا به حكام أوروبا وبيدهم ميزان سياستها .

رجاؤنا في الأفاضل الكرام صاحب جريدة (فرهنك) الأصفهانية وصاحب جريدة (اطلاع) الطهرانية وسائر أرباب الجرائد الإيرانية أن يوجهوا أفكارهم إلى هذا المطلب الرفيع ويجعلوا له محلا فسيحا من جرائدهم وينشروها من بلادهم الأفغان باللسان الفارسي وهو لسان الطائفتين وما هي إلا أيام ثم نرى علائم النجاح إن شاء الله رب العالمين .